أبوحيان الأندلسي (ت 745هـ) وأهلية المفسر للقرآن الكريم

دراسة نظرية تحليلية

د. زين العابدين الهلالي

باحث في العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية، حاصل على الدكتوراه / أصول التفسير اللغوية

أستاذ عرضي بجامعة محمد الخامس الرباط/دراسات إسلامية

أستاذ مادة التربية الإسلامية بالثانوي الإعدادي

أستاذ علوم اللغة العربية والعلوم الشرعية بالتعليم العتيق الرباط

المغرب

ملخص:

تناول هذا البحث أهم الضوابط والشروط والصفات التي صرح بها أبو حيان الأندلسي في بيان أهليته التفسيرية في مقدمة تفسيره البحر المحيط، وأعقبها ببيان ما يجب توفره منها في كل مفسر للقرآن الكريم، وتطلع البحث إلى الكشف عن الأسس العلمية التي تضبط أهلية المفسر التي يقتدر بها على القيام بالعملية التفسيرية للوصول إلى المعاني القرآنية المقصودة حسب الطاقة البشرية، وبيان كيفية توظيف تلك المؤهلات العلمية: اللغوية والتفسيرية في ترجيح معنى على معنى ووجه إعرابي على آخر عند تعدد الاحتمالات الواردة في المحل الواحد؛ إذ بهده الأهلية استنباط المعني التفسيري للآية واستجلاء دلالاتها كما يوضح كذلك منهج أبي حيان الأندلسي في الموافقة بين الأهلية اللغوية النحوية والإعرابية والبلاغية والأهلية التفسيرية، وذلك صيانة للمفسر من الخروج بنظم القرآن الكريم ودلالته، ومبناه ومعناه، وفصاحته وبلاغته عن معهود اللسان العربي في إعراب، أو توجيه، أوبيان، أو معنى، أو دلالة، أو استخراج حكم شرعي.

واعتمد البحث على نصوص تحليلية تطبيقية مقتبسة من كلام أبي حيان في البحر المحيط مقدمة ومتنا، مع محاولة رصد هذه الأهلية في حديثه عن مؤهلاته: اللغوية والتفسيرية، أو فيما صرح به من شروط المفسر وصفاته في مقدمة تفسيره، أو في متنه أثناء مباشرة العمل التفسيري للقرآن الكريم.

وخلصت الدراسة إلى أن أبا حيان لا يبيح لأي شخص كائنا من كان أن يتسلق سور التفسير القرآني دون التحق من هده المؤهلات، واعتبر إتقان اللسان العربي أصلا أساسا في المفسر يبني عليه فهم المعاني التفسيرية للقرآن، ويستخلص به الصواب والأصوب منها وفق ما يليق بالقرآن الكريم مبنى ومعنى، فالمفسر المؤهل لتفسير القرآن الكريم بتلك الشروط والصفات يستجمع التكامل المعرفي بين العلوم اللفظية والعلوم الشرعية: علوم اللسان، وعلوم المعاني والبيان، وعلوم الشريعة والقرآن، فيستحضر العلوم الوسائل منها لدرك الغايات والمبتغى من عمله، فيقتدر بأهليته على استثمار الصناعات النحوية، والدلالات اللغوية، والأساليب البلاغية في التفسير، وعلوم الشريعة وفنونها؛ فيصون تفسيره للقرآن عن كل معنى مناف لقدسية نظمه ومبناه، ومتجاف لبلاغته وفصاحته ومعناه، وبعيد عن دلالاته وفحواه، ومجانب للصواب في إعجازه وتشريعاته وهداه.

الكلمات المفتاحية: أبوحيان الاندلسي – البحر المحيط – المفسر – أهلية المفسر – التفسير –

تقديم:

الحمد لله الذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعلمين نذيرا، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين بشيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسرجا منيرا، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد، فإن أهلية المفسر من المباحث الدقيقة في العمليات التفسيرية؛ لما له من أثر في بيان معاني القرآن ودلالاته الإفرادية والتركيبية، وقدرة المفسر بها على توجيهها، وكشف وجوه البلاغة والفصاحة فيها وصولا بعد ذلك إلى استخلاص الأحكام والتشريعات والهدايات المقصودة بذلك كله.

وقد اعتنى العلماء ببيان الأهلية في كل العلوم والفنون والتخصصات والمجالات، عنوا بذلك في مجال التفسير القرآني عناية فائقة، فاشترطوا في المفسر شروطا وصفات جعلوها معايير علمية، وكفايات عملية تكشف عن أهلية من يتصدى لتفسير القرآن.

ويبرز في هذا السياق جهد أبي حيان الأندلسي في بيان ذلك في مقدمة تفسيره ومتنه؛ إذ يُعتبر من أبرز المفسرين الذين أولوا عناية خاصة لهذه الأهلية العلمية عموما، واللغوية خصوصا، والتفسيرية بوجه أخص، فظهرت أهلية أبي حيان عملا لا قولا فقط وتحقيقا لا ادعاء، فقد تميز منهجه في التفسير بالجمع بين التحقيق العلمي، والترجيح الإعرابي، والتدقيق التفسيري في كشف المعاني القرآنية ومراعاة خصوصيات القرآن مبنى ومعنى، مستثمرا في ذلك ما نشأ عليه واتصف به من موسوعية علمية متكاملة في علوم اللسان، وعلوم الشرع، وعلوم القرآن.

وتنبعث أهمية هذا الموضوع من الكشف عن طبيعة المنهج المعتمد عند أبي حيان وعند غيره من المفسرين، في التكامل العلمي المعرفي في تفسير القرآن، فتبرز كيفية التوظيف لهذه العلوم والمعارف المكونة لتلك الأهلية، وبيان مستوى ارتباطها بإتقان اللسان العربي، كما يُظهر ذلك أيضا العلاقة الوثيقة بين الأهلية اللغوية والأهلية التفسيرية؛ فلا تنفصل هذه عن تلك ليرى الموصوف بها مؤهلا أو غير مؤهل لمقصودها، وهو تفسير القرآن الكريم.

ومن ثم تدرك القيمة العلمية للموضوع علمية كانت أو شرعية، فأما قيمته العلمية، فإن للعلماء عموما مراعاة للأهلية في تخصصاتهم على اختلافها وتنوعها، وللمفسرين خصوصا عناية فائقة بهذه المؤهلات المشترطة في المفسر، فاشترطوا الأهلية فيه كما اشترطوها غيرهم في الأصولي، والفقيه، والمحدث، والطبيب وغيرهم، ولكل فن مؤهلات أهله التي تؤسس عليها أهلية المشتغلين فيه، وكان أبوحيان ممن صرح باشتراطها وأكد عليها وأعلنها في مقدمة تفسيره ومتنه، وأما القيمة الشرعية، فإن القرآن مستجمع لأصول العلوم وكليات الفنون وقواعدها، فقد أنزله الله على معهود العرب في كلامهم، فكان نزوله بلسان عربي مبين كما هو صريح القرآن في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[1]، ومعلوم أن للقرآن خصائص ينفرد بها عن غيره من الكلام؛ إذ هو بلسان عربي مبين بلغ في مبناه ومعناه أعلى مستويات الإعجاز، وفي التشريع أحسن الأحكام وأصدق المقاصد، وفي البلاغة والمعاني أوفى الإيجاز، فكان لزاما على كل من يريد تفسيره أن يتحلى بأهلية تمكنه من الاقتدار على اكتشاف معانيه التفسيرية وتوجيهها، وبيان أحكامه التشريعية وتفسيرها، فحق للمفسر أن يكون محيطا بما هو ضروري من هذه العلوم وفنونها مما يفتقر إليه في تفسير القرآن الكريم.

فإذا كان شأن القرآن كذلك، بل وأسمى من ذلك، فإلى أي مستوى يمكن أن يكون أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) قد تحققت فيه أهلية المفسر، وما هي شروط هذه الأهلية ومرتكزاتها وأسسها حسب رؤيته ونظره؟

وبناء على هذه الإشكالية تبرز جملة من الأسئلة الفرعية المؤطرة لهذا الموضوع:

1. من هو أبو حيان الأندلسي المفسر وما أهليته في هذا المجال، وما المقصود بأهلية المفسر عنده في تفسيره البحر المحيط؟

2. ما شروط المفسر وصفاته التي تحقق أهليته حسب أبي حيان الأندلسي، وكيف اكتسب أبوحيان أهليته العلمية: اللغوية والتفسيرية التي اقتدر بها على خوض مجال التفسير؟

3. ما هي أنواع العلوم التي يجب على المفسر إتقانها لتحقيق هذه الأهلية حسب أبي حيان الأندلسي؟

ولذا جاء هذا المقال قاصدا بيان هذه الأهلية حسب أبي حيان الأندلسي وأهميتها في توجيه العمل التفسيري للمعاني التفسيرية للقرآن الكريم وترشيده حسب الملاءمة المطلوبة في التعامل مع قدسية النص القرآني، وقد اعتمد البحث على منهج وصفي نظري وتحليلي لجملة من النصوص التفسيرية التطبيقية المقتبسة من كلام أبي حيان الأندلسي في تفسيره مقدمة ومتنا، وتنويهه بأهلية ابن عطية والزمخشري العلمية: اللغوية والتفسيرية، وثنائه على تفسيريهما، وثنائه على علماء الأندلس في هذا المجال، وهو يتحدث عن أهليته اللغوية والتفسيرية.

ولذا جاء العمل في هذا البحث منقسما إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، فأما مقدمته فبينت فيها أهمية الموضوع وإشكاليته، وقيمتيه الشرعية والعلمية، وخطة إنجازه، ومنهجه، وأما المبحث الأول، فقد جاء الحديث فيه عن أهلية أبي حيان الأندلسي العلمية: اللغوية التفسيرية، واستثمارها في التعريف به من جهة متعلق هذا البحث، وأما المبحث الثاني فجاء مقررا لشروط المفسر وصفاته التي بها تنعقد أهليته في سلك المؤهلين لتفسير القرآن الكريم، ثم ختم الموضوع بخاتمة ملخصة لمضمونه ومطلوبه ومعناه، وقائمة للمصادر والمراجع المعتمدة فيه.

المبحث الأول: أبوحيان الأندلسي وأهليته التفسيرية:

المطلب الأول– تعريف أبي حيان الأندلسي:

متعلق البحث في التعريف بأبي حيان الأندلسي الاقتصار بماله صلة وثيقة بموضوعه، خصوصا ما تعلق من ذلك بأهليته العلمية: اللغوية والتفسيرية؛ لأن في ذلك تمهيدا لبيان هذه الأهلية في المفسر التي ينبغي أن يتحقق بها في تفسيره للقرآن الكريم، فأهليته العلمية تكسبه القدرة على استثمار العلوم اللفظية والشرعية في العمل التفسيري للقرآن الكريم، وأهليته اللغوية تكسبه القدرة على اختيار الوجوه الإعرابية والتوجيهات اللغوية: النحوية والصرفية والبلاغية الملائمة لتفسير القرآن الكريم، وأهليته التفسيرية تكسبه القدرة على بيان المعاني التفسيرية للقرآن الكريم حسب طاقته البشرية، وفق أصول التفسير وقواعده وضوابطه، ولذا كان التعريف به كما يلي:

أولا– نسب أبي حيان وولاته ووفاته:

أبوحيان هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي[2]، ونص من ترجم له على أن لقبه أثير الدين، وصرح أبوحيان نفسه في تفسيره بكنيته، وهي أبوحيان، واسمه، وهو محمد، فقال: "كما جرى في كنيتي بأبي حيان، واسمي محمد"[3]، ولد أبوحيان عام 654هـ[4]، وتوفي – رحمه الله – عام 745هـ.

ثانيا– نشأة أبي حيان ورحلاته العلمية:

نشأ أبوحيان الأندلسي نشأة قرآنية وقرائية منذ صغره، فتحقق له التتلمذ على كبار علماء بلاد الأندلس في فنون متنوعة: قرآنية ولغوية وشرعية، فكان ذا موسوعية معرفية في فنون عديدة، كما برز في علوم اللسان وعلوم القرآن، وحصل له من ذلك أعلى أسانيد أهل الزمان، كما فصل ذلك في مقدمة تفسيره: البحر المحيط[5]، ورحل رحلات علمية، اجتمع فيها بعلماء الأمصار، وروى عنهم ورووا عنه، واشتهر أمره في الآفاق، وذاع صيته في الدنيا وما حظي به من الوفاق، قال السبكي: "ونشأ بغرناطة وقرأ بها القراءات والنحو واللغة، وجال في بلاد المغرب ثم قدم مصر قبل سنة ثمانين وستمائة"[6]، وذكر الذهبي شيوخه الذين تلقى عنهم في مصر[7]، كما تحدث ابن حجر عن شيوخه الذين تلقى عنهم في الأندلس، ومصر، وتحدث عمن أخذ كل علم من العلوم.[8]

ثالثا– أهلية أبي حيان اللغوية والنحوية:

تحدث أبوحيان في مقدمة تفسيره البحر المحيط عن تمكنه من اللسان العربي ، وبين مصادره اللغوية في تعلمه، ومشيخته في دراسته، ، فإنه لما أثنى على تفسيره بأنه جمع لطائف علم التفسير ، وأنه استخرجها بفكره، واستنتجها بذهنه، بين أنه إنما حصل له ذلك بملازمته لهذا اللسان وعلومه، والنظر فيه وتفهمه، فقال: "فكم حوى من لطيفة، فكري مستخرجها، ومن غريبة ذهني منتجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية، والنظر في التراكيب النحوية، والتصرف في أساليب النظم والنثر"[9]، ثم أثنى على علو شأن أهل بلده الاندلس وتفننهم في علوم اللسان وفنونه؛ ليوضح بذلك أنه أخذ العلوم اللسانية عن أهلها البارعين فيها، بل بالغ في تصريحه أنه لم يلق في فن اللسان من يقاربهم فضلا عن مماثلتهم، أو مناضلتهم، فقال: "ولم ألق في هذا الفن من يقارب أهل قطرنا الأندلسي فضلا عن المماثلة، ولا من يناضلهم فيداني في المناضلة"[10]، وبهذا التمكن من هذا اللسان، والتفنن في علومه وأصوله استحق أبوحيان الإمامة في علوم العربية وفنونها خصوصا علمي النحو والتصريف، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في دراستها، وجثا على ركبتيه بين يديهم في تعلمها، شيخه: أبو جعفر بن الزبير، فقد أخذ عنه كتاب سيبويه، وقال فيه مثنيا عليه: "وقد أخذت هذا الفن عن أستاذنا الأوحد العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي في كتاب سيبويه وغيره"[11]، وقال فيه أيضا: "وقد أخذت جملة من هذا الفن عن أستاذنا أبي جعفر بن الزبير– رحمه الله تعالى"[12]

واعتني أبوحيان في صغره عناية فائقة بحفظ دواوين علوم اللغة وأشعارها، وحفظها حفظا متقنا جعله إماما مبرزا فيها، وبارعا في تفاصيلها وجزئياتها، وأكسبه ملكة توظيفها في تفسيره المعاني القرآنية في بحره، وفي بيان المعنى قال: "وقد حفظت في صغري في علم اللغة كتاب الفصيح لأبي العباس أحمد بن يحي الشيباني، واللغات المحتوي عليها دواوين مشاهير العرب الستة: امرئ القيس، والنابغة، وعلقمة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وديوان الأفوه الأودي لحفظي عن ظهر قلب لهذه الدواوين، وحفظت كثيرا من اللغات المحتوي عليها نحو الثلث من كتاب الحماسة واللغات التي تضمنها قصائد مختارة من شعر حبيب بن أوس لحفظي ذلك"[13]، وهذا التكوين اللغوي الرصين أكسبه ملكة لغوية ونحوية فائقة اقتدر بها على التفوق في توظيف اللسان العربي وعلومه في تفسير القرآن الكريم، واستشفاف[14] معانيه التفسيرية والبيانية، وهداياته وأحكامه التشريعية.

رابعا– أهلية أبي حيان التفسيرية:

يعتبر أبوحيان الأندلسي إماما مفسرا شهد له بذلك الداني والقاصي، فقد اشتغل بحفظ القرآن الكريم وضبط قراءاته، ودراستها دراسة متقنة منذ صغره، ودراسة التفسير على مشايخه وأهله؛ فكان بذلك إماما واسع الاطلاع في علوم القرآن، طويل الباع بعلوم العربية وفنون اللسان، متقنا لعلوم الشريعة وقواعدها الحسان، كالفقه وأصوله، والحديث وعلومه، والعقيدة الصحيحة وأصول الإيمان، وقد تولى بيان مشيخته في التفسير بنفسه كما هو دأبه في مقدمة تفسيره، فتحدث عن مشيخته وإجازته في تفسير الزمخشري[15]، ومشيخته وإجازته في تفسير ابن عطية[16]، ومشيخته وإجازته في تفسير ابن النقيب[17]، وذكر أشهر شيوخه الذين عنهم أخذ هذا الفن، وبدراسته عليهم برع فيه، ومن شيوخه: ابن الزبير وابن البخاري، وابن أبي الأحوص، وابن النقيب وغيرهم.

المبحث الثاني– أهلية المفسر عند أبي حيان الأندلسي:

المطلب الأول– شروط المفسر عند أبي حيان:

ذكر أبوحيان الأندلسي سبعة وجوه جعلها معتمدا أساسا لأهلية المفسر، وأصلا محكما في تأهله لتفسير القرآن، وشروطا لا يستغنى عنها في عملية التفسير القرآني، وخلل هذه الوجوه بذكر جميع أسانيده وتحملاته ومشيخته في تلك العلوم، ليكشف بذلك أنه اكتملت فيه الأهلية التفسيرية من جميع جوانبها، وعلي ذلك بنى عمله هذا في تفسير البحر المحيط، وأكد أن من لم يحط بغالب هذه الأوجه لا ينبغي له الاشتغال

بتفسير القرآن الكريم؛ لكونه ليس أهلا لهذا الاختصاص، فقال: "فهذه سبعة وجوه، لا ينبغي أن يقدم على تفسير كتاب الله إلا من أحاط بجملة غالبها من كل وجه منها"[18]، وعنى بالوجوه ما بينه في مقدمة تفسيره، وهي كما يلي:

أولا– إحاطة المفسر بغالب علم اللغة من جهة ما يتعلق بمدلول الألفاظ اسما وفعلا وحرفا:[19]

ويستلزم تحقيق هذه الإحاطة في المفسر تمكنه من متن اللغة العربية ومعجمها، وذلك برجوع إلى قواميس اللسان المفسرة له ومعجماته، وحفظ أشعار العرب وأنثارهم وأمثالهم وخطبهم وفهم معاني كلامهم بدراستها وشروحات مفرداتها وتراكيبها ومعانيها وأساليبها؛ لاكتساب معهود اللسان الذي به نزل القرآن.

ثانيا– إحاطة المفسر بغالب معرفة الأحكام التي للكلمات العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها:[20]

يقتضي هذا الوجه من المفسر التمكن من معرفة علمي النحو والصرف معرفة وتطبيقا، وذلك بإدراج الجزئيات في دوائر كلياتها، وإلحاقها بها مستثمرا السياق اللغوي في بيان معاني القرآن الكريم، وتوظيف المتعلق من ذلك بتفسيره للقرآن الكريم.

ثالثا– إحاطة المفسر بمعرفة البلاغة والفصاحة والبيان وإدراك إعجاز القرآن:

ويستدعي هذا الوجه من المفسر أن يكون ذا معرفة واسعة بفصيح اللفظ والتركيب وبليغه، وإدراك هذا رهين بالتمكن من علوم البلاغة من معان وبيان وبديع، تمكنا يصل به حد الإحسان الذي يكتسب به الملكة والاقتدار في معرفه ذلك وتوظيفه.[21]

رابعا– سعة اطلاع المفسر على النقل الصحيح من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته[22]:

فالمفسر يقتدر بهذا الوجه على تعيين المبهم، وتبيين المجمل، وبيان سبب النزول والنسخ، وهذا يقتضي منه التمكن من دراسة مصادر السنة النبوية، وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والقدرة على الرجوع إليها عند الحاجة خصوصا ما تعلق من ذلك ببيان هذه الوجوه التي تندرج ضمن الذكر الذي كلف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بتبيينه للناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[23]

خامسا– إحاطة المفسر بقواعد الإجمال، والتبيين، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وغير ذلك:[24]

وهذا الوجه يستوجب من المفسر سعة الاطلاع على علمين أساسين:

الأول– علم اللغة العربية: إذ معظم هذا الشرط راجع إلى سعة الاطلاع على اللغة ومعجمها التفسيري، واعتبر أبوحيان معظم هذا الوجه راجعا لعلم اللغة، فقال: "ومعظمه هو في الحقيقة راجع لعلم اللغة، إذ هو شيء يتكلم فيه على أوضاع العرب"[25]

العلم الثاني– علم أصول الفقه، وهو العلم الذي يجعل المفسر محيطا بمصطلحات هذا الفن، ويُعْنَى برسوم جامعة مانعة تمكنه من ضبط المعاني اللغوية والشرعية على حد سواء، وما يبنى على ذلك من دلالات وتطبيقات.

سادسا– العلم بالعقيدة الصحيحة والعقائد الفاسدة:

ويكسب هذا الوجه المفسر القدرة على ضبط الكلام فيما يجوز على الله تعالى، وما يجب له، وما يستحيل عليه، والنظر في النبوة، والوحي والغيب والمعجزات، وغير ذلك[26]، ويتحقق هذا الشرط بالتمكن من دراسته علمي العقيدة والكلام الذي به تقرير صحيح الاعتقاد، ورد فاسده وشبهاته المنحرفة.

سابعا– العلم بالقراءات القرآنية:

ويتمكن المفسر بالعلم بها من ضبط اختلاف الألفاظ القرآنية بالزيادة أو الحذف، أو تغيير حركة، أو ذكر لفظ بدل لفظ آخر، وهذا يحتاج فيه لتعلم علم القراءات والتمكن منه.

فتبين بهذه الشروط التي سماها أبوحيان وجوه التفسير السبعة التي لا يستغني عنها المفسر أنه يجب عليه أن يكون متكنا من هذه العلوم التي استجمعتها هذه الوجوه، فيشترط فيه ليكون مؤهلا لتفسير القرآن:

1- أن يكون عالما باللغة وكلام العرب وأشعارهم؛ لاحتياجه إليه في الوجه الأول.

2- أن يكون عالما بالنحو والتصريف والاشتقاق؛ لاحتياجه إليها في الوجه الأول والثاني.

3- أن يكون عالما بعلوم البلاغة لاحتياجه إليها في الوجه الثالث.

4- أن يكون عالما بصحيح النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لاحتياجه إليه في الوجه الرابع.

5- أن يكون عالما بأصول الفقه؛ لاحتياجه إليه في الوجه الخامس.

6- أن يكون عالما بعلمي العقائد والكلام؛ لا فتقاره إليه في الوجه السادس.

7- أن يكون عالما بالقراءات القرآنية وما يرتبط بها من توجيه وتخريج وتعليل؛ لافتقاره لذلك في الوجه السابع.

ثم أبطل أبوحيان زعم من زعم أن النظر في التفسير متوقف على علم النحو فقط، فبين أن البراعة في علم النحو لا تجعل صاحبها مؤهلا للنظر في التفسير دون الاحتياج إلى علوم الأدب وغيرها من العلوم الأخرى، فقال: "ولنبين أن علم التفسير ليس متوقفا على علم النحو فقط، كما يظنه بعض الناس"[27]، ثم أكد أن المفسر مفتقر إلى علوم البيان، فقرر ذلك بإثبات حقيقتين:

الحقيقة الأولى– بيان أبي حيان أن أكثر أئمة العربية بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة، وفيه قال: "بل أكثر أئمة العربية هم بمعزل عن التصرف في الفصاحة والتفنن في البلاغة، ولذلك قلت تصانيفهم في علم التفسير"[28]، وأكد هذا المعنى أيضا، فقال: "وقد رأينا من ينسب للإمامة في علم النحو، وهو لا يحسن أن ينطق بأبيات من أشعار العرب، فضلا عن أن يعرف مدلولها"[29]، فبين أن العلم بالنحو إنما هو جزء من علوم كثيرة ينبغي للمفسر أن يحصلها، ويتقنها، ويبرع فيها؛ ليندرج في سلك المؤهلين للنظر في فن التفسير.

الحقيقة الثانية– بيان أبي حيان أن النحويين لا يبرعون في النظم والنثر والفصاحة إلا قليلا، وفي هذا الشأن قال: "وقل أن ترى نحويا بارعا في النظم والنثر"[30]، ثم شبه قلة براعة النحوي في الفصاحة بقلة براعة الفصيح الأديب في النحو، فقال: "كما قل أن ترى بارعا في الفصاحة يتوغل في علم النحو"، ثم أكد ما ذكره في النحوي من عدم قدرته على تعاطي التفسير القرآني، فقال: "فأنى لمثل هذا أن يتعاطى علم التفسير؟"، فدل كلامه هنا على أن التوغل في علم النحو ليس كافيا للنظر في التفسير، بل لابد من تكامل هذه العلوم فيما بينها في المفسر، فيتم بها نظره، وتتفتق بها ملكته، فيكون أهلا لتفسير القرآن الكريم، ولذا سرد أبوحيان في مقدمة تفسيره مداركه من هذه العلوم؛ ليعلم بذلك غيره أنه لم يقدم على هذا الفن إلا بعد استكمال الأهلية كما شهد له بذلك علماء زمانه ومترجموه، وأورد أبوحيان ما ذهب إليه الزمخشري في أهلية المفسر، فبين أنه لا يمكن لكل ذي علم أن يتعاطى تفسير القرآن، ولو كان مبرزا في علم من العلوم الأخرى؛ لأن التبريز في علم واحد بل في علوم لا يكفي لتكوين أهلية المفسر ما لم تتحقق فيه شروط وصفات وكفايات أخرى كما تقدم بيانه، وكما يأتي كذلك، فعلم التفسير علم ذو دقائق ولطائف ونكت لا يقدر على استخراجها كل أحد، ولذا قال أبوحيان ناقلا عن الزمخشري ومثنيا عليه في هذا: "ولله در أبي القاسم الزمخشري حيث قال في خطبة كتابه في التفسير ما نصه: "إن إملاء العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من

غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها. علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه، كل ذي علم"[31]، وعزا الزمخشري للجاحظ أن التبريز في علم من العلوم لا يمكن صاحبه أن يكون مفسرا مؤهلا للنظر في التفسير، فقال: "فالفقيه، وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم، وإن بز[32] أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار، وإن كان من ابن القرية[33] أحفظ، والواعظ، وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي، وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي، وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما المعاني وعلم البيان، وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورجع إليه، ورَدَّ وُرُدَّ عليه، فارسا في علم الإعراب، مقدما في جملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس دراكا للحجة وإن لطف شأنها، منتبها على الرمزة، وإن خفي مكانها، لا كزا جاسيا، ولا غليظا جافيا، متصرفا ذا دربة بأساليب النظم والنثر، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه[34]، فهذا النص من نقل أبي حيان عن الإمام الزمخشري، وهو كلام ذو مقام عال ثري بالدلالات في هذه الجزئية؛ إذ يفيد أن التمكن من أي علم من العلوم المذكورة لا تجعل صاحبه مفسرا مؤهلا إلا إذا تحققت فيه صفات، وهي:

1- البراعة في علمي المعاني والبيان، والتحقق منهما وقتا من الزمن، والتعب في التنقير عنهما أوقاتا متتالية، وأزمنة متتابعة.

2- أن يأخذ من كل العلوم التي لها بتفسير القرآن تعلق، ولها في كشف معانيه سبب تفوق.

3- أن يكون فارسا في علم النحو والإعراب، متمكنا من الكتاب الذي يعد أهم مصادر النحو الأصلية.

4- أن يكون صاحب تحقيق وحفظ كثير المطالعات طويل المراجعات.

5- أن يكون ذا قدرة بكيفية ترتيب الكلام، وتأليفه، ونظمه، وترصيفه.

6- أن يكون قادرا على التصرف في النظم والنثر ذا دربة فيهما.

7- أن يكون قادرا على تلقيح بنات الفكر.

8- أن يكون ذا همة تبعثه على تتبع مظان علمي المعاني والبيان؛ ليدرك لطائف حجة الله في كلامه.

9- أن تكون طبيعته مسترسلة منقادة.

10- أن يكون ذا قريحة مشتعلة وقادة.

11- أن يكون يقظ النفس منتبها.

12- ألا يكون كزا جاسيا[35] في طبعه ولا غليظا جافيا في جبلته.

وعليه؛ فإن كلام الزمخشري قد اشتمل على شروط وصفات، بعضها علمي معرفي كالأول والثاني والثالث، والرابع، وبعضها مهاري كالرابع والخامس والسادس والسابع، وبعضها نفسي طبعي جبلي، أو مكتسب كالثامن والتاسع، والعاشر، والحادي عشر، والثاني عشر، وفي كل ذلك تداخل لهذه الكفايات في كل شرط أو صفة من الصفات المذكورة، وقد كشف أبوحيان بإيراد هذا النص عن أهلية الإمام الزمخشري التفسيرية ببراعته البيانية، فقال: "انتهى كلام الزمخشري في وصف متعاطي تفسير القرآن، وأنت ترى هذا الكلام وما احتوى عليه من الترصيف الذي

يبهر بجنسه الأدباء، ويقهر بفصاحته البلغاء، وهو شاهد له بأهليته للنظر في تفسير القرآن، واستخراج لطائف الفرقان"[36]، فبهذا تدرك أن هذه الشروط والصفات الناظمة لأهلية المفسر هي محل اتفاق بين المفسرين، ومركز وفاق بين أهل هذا الفن أجمعين.

المطلب الثاني– صفات المفسر عند أبي حيان:

تقدم في التعريف بأبي حيان الأندلسي وفي المطلب الأول من المبحث الثاني أن المفسر لا بد أن يكون متمكنا من مؤهلات علمية وكفايات عملية تجعله قادرا على استثمار معارفه العلمية، ومهاراته اللغوية، وعلومه الشرعية في تفسير القرآن الكريم؛ فتفسير القرآن الكريم عمل علمي جدير بالاعتناء والاحتياط؛ لأن موضوعه بيان معاني كلام الله، وهو أقدس كلام على الإطلاق يعتنى بتفهمه وتدبره، ويمنح أجل الأوقات وأفضلها؛ لأنه لو تنكب المشتغل به المنهج السوي فيه، وتسلق أسوراه من دون عدة كان اشتغاله به محفوفا بالأخطار الفكرية، والأعطاب التصورية للمعاني التفسيرية، فلا يمكن الاشتغال بتفسير القرآن الكريم مع غياب الانضباط بأصوله التفسيرية وقواعده الترجيحية؛ إذ الزلة فيه خطيرة، وعاقبة الانحراف فيه عسيرة، فلهذا كان أبوحيان صريحا في مقدمة تفسيره حين سرد جملة من الصفات والشروط المؤهلة للمفسر التي ينبغي تحققه منها ، جاعلا من لم يتصف بها غير مؤهل للقيام بعملية التفسير، بل يتعذر عليه الاهتداء لاستنباط معاني القرآن الكريم واستخراجها؛ لأنه من المعلوم ضرورة أنه ليس كل من وسوست له نفسه القدرة على النظر في تفسير القرآن وبيان معانيه كان في الواقع كذلك، بل لا بد من تحقق شروط وصفات في المفسر، فشأن التفسير القرآني في ذلك كشأن الفنون الأخرى، فللمجتهد شروط وصفات في أصول الفقه، وللمحدث صفات في الحديث، وللقاضي والشاهد صفات كذلك وهلم جرا، فللمفسر كذلك شروط وصفات يجب تحصيلها والتحلي بها، وإقامتها في النفوس؛ ليكون بها مؤهلا لتفسير القرآن الكريم؛ ولذا قرر أبوحيان أهلية المفسر بوجوه متعددة، أجملها موجزة كما يلي:

أولا– صفات المفسر التي ينبغي توفرها فيه:

بين أبوحيان أن للمفسر صفات لا بد من توفرها فيه لتتحقق أهليته للنظر في التفسير، وهي:

1– سلامة فكر المفسر ونقاؤه ونصاعته، واستفراغ الوقت وهجر المشغلات والإقبال على الله:

فالمفسر مفتقر تمام الافتقار لهذه الصفة؛ فهو يحصن بها نفسه من مشوشين على الفكر، وهما شبهة وشهوة، فأما الأولى فينبغي للمفسر أن يصون قلبه وفكره عنها بالرسوخ في العقيدة الصحيحة وصدق الإيمان حتى يبلغ درجة اليقين، وأما الثانية، فينبغي له أن يصون قلبه عنها بالصبر عن متعلقاتها من شهوات الدنيا، وتزكية النفس وتطهيرها من الأهواء المضلة، ويضاف لصيانة القلب عن الشهوات: استفراغ الجهد والوقت واختيار أوقات الصفاء الروحي والنفسي للنظر في كتاب الله تعالى مع صدق اللجوء والتضرع إلى الله تعالى بطلب فتح البصيرة وتنوير السريرة، فإن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ولذا قال أبوحيان عاطفا على ما سبق: "قَدْ جُبِلَ طَبْعُهُ عَلَى إِنْشَاءِ النَّثْرِ وَالنَّظْمِ دُونَ اكْتِسَابٍ، وإبداء ما اخترعته فكرته السليمة في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ في ذلك زمانه النفيس، وهجر الأهل والولد والأنيس، ذلك الذي له في رياضه أصفى مرتع، وفي حياضه أصفى مكرع، يتنسم عرف أزاهر طال ما حجبتها الكمام، ويترشف كؤوس رحيق له المسك ختام، ويستوضح أنوار بدور سترتها كثائف الغمام، ويستفتح أبواب مواهب الملك العلام"[37]، فوصف الفكرة بالسلامة، وتعليق استفراغ الجهد بالزمان الطويل، والتأدب حين الشروع في التفسير باستفتاح أبواب مواهب الملك العلام لهو أقوى دليل على اشتراط هذه الأوصاف في المفسر؛ لأن بها نقاء القلب وصفاءه وصدقه، وقوته وتوكله واعتماده على الله الفتاح الوهاب.

2– تقوية المواهب الإلهية بالاكتساب والبراعة في علمي المعاني والبيان:

مما يطلب في المفسر قوة المواهب الربانية العلمية والأدبية واللغوية، وتقويتها باكتساب العلم والمعرفة بالاستزادة من البحث وسعة الاطلاع أمر مؤكد، وطلب ما يعين على إدراك المعاني مرغب فيه، وفي هذا قال أبوحيان: "فهذه كلها من مواهب الله تعالى، لا تؤخذ باكتساب، لكن الاكتساب يقويها"[38]، وذلك لأن الناس في هذه المواهب متفاوتون، فمتى وجد الإنسان مسلكا لتقوية مداركه كان ذلك أجدر به، وهو مقبل

على النظر في تفسير القرآن الكريم، وكان هذا التفاوت حاصلا بين أهل اللسان والبراعة والبيان، وكان كثير من فصحائهم يحرص على تنقيح القصائد زمنا طويلا حتى تكون أجود ما يأتي به، وقد ذكر أبوحيان هذا مستدلا به على ما سبق من مطالبته المفسر بالعناية بموهبته، فقال: "وليس العرب متساوين في الفصاحة، ولا في إدراك المعاني، ولا في نظم الشعر، بل فيه من يكسر الوزن، ومن لا ينظم ولا بيتا واحدا، ومن هو مقل من النظم، وطباعهم كطباع سائر الأمم في ذلك، حتى فحول شعرائهم يتفاوتون في الفصاحة، وينقح الشاعر منهم القصيدة حولا حتى يسمى قصائد الحوليات، فهم مختلفون في ذلك"[39]، ووقع بسبب التفاوت في الموهبة تفاوت في إدراك إعجاز القرآن وقوة بيانه لبعض العرب، وذكر أبوحيان من ذلك قوله: "وكذلك كان بعض الكفار حين سمع القرآن أدرك إعجازه للوقت، فوفق وأسلم، وآخر أدرك إعجازه فكفر، ولج في عناده بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فنسبه تارة إلى الشعر وتارة إلى الكهانة والسحر، وآخر لم يدرك إعجاز القرآن، كتلك المرأة العربية التي قدمنا ذكرها، وكحال أكثر الناس، فإنهم لا يدركون إعجاز القرآن من جهة الفصاحة، فمن أدرك إعجازه، فوفق وأسلم بأول سماع سمعه، أبو ذر، رضي الله عنه، قرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوائل فصلت آيات فأسلم للوقت، وخبره في إسلامه مشهور"[40]، فمن هؤلاء العرب الفصاح من أدرك بيان القرآن وإعجازه وبلاغته حينا، ولم يحتج لكبير تأمل، أو كثير نظر، ومنهم من ليسوا كذلك كحال كثير من الناس، وهؤلاء المدركون إما موفق أسلم، أو مخذول معرض كفر، ولج في العناد، وحاول التشويش والتشغيب، وهو يعلم أن القرآن حق منزل من عند الله، وأنه وحي منه سبحانه، وممن ناهم توفيق الله أبوذر – رضي الله عنه –، فأدرك الإعجاز القرآني فأسلم، وعلم فاستمسك، وممن أدركه فعاند، عتبة بن ربيعة، وفيه قال أبوحيان: "وممن أدرك إعجازه وكفر عنادا عتبة بن ربيعة، وكان من عقلاء الكفار، حتى كان يتوهم أمية بن الصلت أنه هو، يعني عتبة يكون النبي المنبعث في قريش. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، حسده عتبة وأضرابه، مع علمهم بصدقه، وأن ما جاء به معجز. وكذلك الوليد بن المغيرة"[41]، فما يهبه الله للمفسر من المواهب العلمية والبيانية من أشرف صفات المفسر، فإذا زاد الإنسان التحقق من ذلك بالاكتساب والتعلم والمدارسة والاستزادة من العلم بكلام العرب وبيانهم وبلاغتهم كان أجود.

3– التبحر في علم اللسان العربي إلى درجة الإحسان فيه، وقدرته على إنشاء النظم والنثر جبلة:

وصفة التبحر في علم اللسان والبلوغ بذلك لدرجة الإحسان أمر لازم للمفسر، فقال: "ومع ذلك فاعلم أنه لا يرتقي من علم التفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلا من كان متبحرا في علم اللسان، مترقيا منه إلى رتبة الإحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النثر والنظم دون اكتساب"[42]، فبين أبوحيان أن الذي يبلغ ذروة التفسير، ويمتطي متنه وصهوته هو المتبحر في علم اللسان، المرتقي فيه إلى درجة الإحسان، وكون الناظر في التفسير متبحرا يقتضي أن يكون الناظر واسع المعرفة بعلوم العربية، مبرزا فيها، قد حقق فيها درجة الإحسان والإتقان.

4– التوغل في أساليب الفصاحة وفنونها لإدراك إعجاز القرآن بالذوق والسجية لا بالتقليد والتبعية:

فالتعمق والتوغل في أفانين البلاغة وإدراك الفصاحة معين للمفسر على إدراك إعجاز القرآن، وعلمه أنه كلام في غاية الفصاحة ومنتهى البلاغة، وأن أي بشر لا يمكن أن يدرك مدركه، ولا أن يسلك مسلكه في ذلك إلا إن تتحقق يقينه أن البشر لا مقدرة لهم على معارضته، ولا سبيل لهم إلى مناضلته؛ ومن لم يدرك هذا المدرك ولم يبلغ هذا المستوى من العلم بفنون البيان ظن أن القرآن كغيره من كلام العرب، وأنه مقدور على الإتيان بمثله، فبعضهم ظن أن العرب منعوا من مماثلته بالصرف عن ذلك، فرد أبوحيان بصريح كلامه عليهم، وضمنه ردا على من توهم من أهل هذا الزمان أن القرآن نص عربي يقع التعامل معه كغيره من النصوص العربية التاريخية، فقال: "فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوقل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ولا داخلة تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنه من نمط كلام العرب، وأن مثله مقدور لمنشئ الخطب، فإعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته ومناضلته، وإن كانوا قادرين على مماثلته"[43]، وبين أن القول بالصرفة نقص في الفطرة، وضعف في الإدراك، فقال: "والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف، هم من نقصان الفطرة الإنسانية"[44]، واعتبرهم في رتبة تلك المرأة التي وجدت زوجها يطأ جارية فلامته وعاتبته، فأنكر، فقالت له: إن كنت صادقا فاقرأ شيئا من

القرآن، فأنشد بيتا من شعر فصدقته، فقال فيها أبوحيان: "فلم ترزق من الرزق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق"[45]، أي: فلم ترزق من العلم والبيان والسجية البلاغية، والملكة الأدبية ما تفرق به بين كلام الخالق وكلام المخلوقين، فأكد أبوحيان بذلك أن من لم يفهم لسان العرب وأدبهم، ومن لم يتمكن من العلم بافتنان كلامهم وسعة اطلاعه عليه لا يقدر على تفسير القرآن، ويعسر عليه الاهتداء لمعانيه، ولذا قال: "وقد أنجر في غضون تفسير هذه السورة الكريمة من علم البيان فوائد كثيرة لا يهتدي إلى استخراجها إلا من كان توغل في فهم لسان العرب، ورزق الحظ الوافر من علم الأدب، وكان عالماً بافتنان الكلام، قادراً على إنشاء النثار البديع والنظام، وأما من لا اطلاع له على كلام العرب، وجسا طبعه حتى عن الفقرة الواحدة من الأدب، فسمعه عن هذا الفن مسدود، وذهنه بمعزل عن هذا المقصود"[46]، فبين أبوحيان بهذا أن المفسر الذي يبغي الاهتداء لفهم معاني كلام الله تعالى على الوجه الأحكم والأسلم لا بد من تحقق اتصافه بالصفات الأدبية الآتية، وهي:

1- التوغل في فهم لسان العرب، وتحصيل الحظ الوافر من علم الأدب.

2- العلم بافتنان الكلام، والقدرة على إنشاء النثار والنظام، - أي النثر والنظم - من الكلام.

3- الاطلاع على كلام العرب حتى يصير تملكه للعربية واطلاعه عليها وعلى علومها وآدابها سجية وفطرة.

فمن اشتد طبعه عن فهم الأدب وبعد حسه عنه، فإن سمعه عن فن التفسير مسدود، وذهنه عنه معزول، وقلبه عنه مقفل، ونفسه فيه كأنما يصعد في السماء، ولو حاول القيام بذلك فإنه لن يفلح في تحقيق مسعاه؛ إذ فهم القرآن الكريم واستنباط معانيه موقوف على هذه الصفات المؤهلة للاشتغال بعملية التفسير، وفي هذا السياق أنكر أبوحيان قول أبي عبيدة باشتقاق ضمير: "إيا"، وبين ضعف مذهبه في ذلك معللا بضعفه في النحو مع إقراره بإمامته في اللغات وأيام العرب، فقال: "وذهاب أبي عبيدة إلى أن إيا مشتق ضعيف، وكان أبو عبيدة لا يحسن النحو، وإن كان إماما في اللغات وأيام العرب"[47]، فإمامة أبي عبيدة في اللغات وأيام العرب لم تشفع له حين تكلم في مجال لا يتقنه، وهذا فيه دليل واضح على أنه لا محاباة في ميزان العلم، ولا مجاملة في بيان صفات الأهلية، والشروط المرعية في العالم الذي يريد الكلام في التفسير، أو في مجال أو علم له صلة به، فحقيق يقصد العدل أن يتبن درجات العلماء في العلوم والمدارك، ودرجات الأقوال والاستدلالات والمسالك بناء على هذه الصفات والشروط، وقد ذكر أبوحيان من ذلك كثيرا في معارض الترجيح في تفسيره، وبيان قوة الأقوال وضعفها.

خاتمة

فما ذكر من الشروط والصفات المؤهلة للمفسر تتأسس ابتداء على أهمية التوغل في فهم لسان العرب، وتحصيل الحظ الأوفر من آدابه، والعلم بافتنان الكلام، والقدرة على إنشاء النظم والنثر من الكلام، والاطلاع على لسان العرب حتى يصير ملكة وسجية في النفس، مع الإحاطة بالمهم والأهم من النحو والتصريف، وعلم اللغة، والبلاغة، وصحيح النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلم بأصول الفقه، وعلم العقيدة والكلام، والقراءات القرآنية وتوجيهها وتخريجها وتحريرها وتعليلها، وأضاف الزمخشري للعلم بالبلاغة البراعة في علمي المعاني والبيان مع التحقق منها والتنقير عنها، ويضاف إلى هذا كله ماله تعلق بالقرآن من العلوم المساعدة على التفسير مع التحقيق والحفظ وكثرة المطالعات وطول المراجعات، والقدرة على ترتيب الكلام، وتأليفه، ونظمه وترصيفه، والتصرف في نظمه ونثره، والقدرة على تلقيح بنات الفكر مع الهمة التي تبعثه على تتبع مظان علمي المعاني والبيان؛ ليدرك لطائف حجة الله في كلامه، ولين الطبيعة وانقيادها، واشتعال القريحة واتقادها، ويقظة النفس وانتباهها مع تجنب الغلظة والجفاء، فينبغي للمفسر أن يكون دراسا لما ذكر من العلوم علامة فيها، قادرا على استحضارها في التفسير متى شاء استحضرها، مطيقا التصرف فيها، وتكييف معارفه وكفاياته منها حسب ما تقتضيه العملية التفسيرية في بيان معاني الآية إفرادا أو تركيبا، وليس المراد أن يكون محيطا بكل ذلك في آن واحد؛ لأن العلوم أوسع من أن يحاط بها في وقت واحد، وإنما المراد أن يكون ذا اطلاع عليها ومعرفة بمصادرها، وقدرة على استحضار ما له تعلق بخدمة العمل التفسيري في الآية، فيكون ذا كفايات تؤهله لاستعمال هذه العلوم استعمالا وظيفيا لا استعمالا معرفيا فقط، فيذكر ما تدعو الحاجة إليه في التفسير، وما له تعلق ببيان المعنى المطلوب، ولذا بين أبوحيان في سياق تفسير الإيلاء من قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾[48]، أنه ينبغي للمفسر مراعاة ذكر ماله تعلق أو بعض التعلق ببيان الآية، فقال: "وذكر بعض المفسرين هنا فروعا كثيرة في الإيلاء، وإنما نذكر نحن ما له بعض تعلق بالقرآن على عادتنا، وليس التفسير موضوعا لاستقراء جزئيات الفروع"[49]، فتبين بهذا أن معرفة أهلية أبي حيان العلمية، وموسوعيته التفسيرية، وأهليته اللغوية جديرة بأن تجعل متأملها مدركا أن لا كلام لأحد في تفسير القرآن الكريم إلا إذا كان ضليعا في كل علم من العلوم اللفظية والشرعية عالما بمراتب مصادر التفسير المختلفة، وقدرته على انتقائها والرجوع إليها، متمكنا من مراتب وجوه التفسير وأصوله اللغوية والشرعية وغيرها، متحليا بصفات المفسر التي تتقوم أهليته، متحققا بشروطه في نفسه التي بها يعرف في هذا الشأن نبوغه، ذا ملكة يقتدر بها على تنزيل المنهج السليم في بيان معاني القرآن الكريم مستثمرا ما يتعلق بالمفردات، ثم التراكيب، ثم الأساليب وهلم جرا، وبالله التوفيق، والحمد لله رب العلمين.

الهوامش:

1 سورة الشعراء، الآيات 193-194-195

[2] مصادر ترجمة أبي حين الأندلسي والتعريف به وبأهليته اللغوية والتفسيرية والنحوية: أبوحيان: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت 745هـ)، مقدمة البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، 1420 هـ، والذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، (ت748هـ)، المعجم المختص بالمحدثين، تح: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق الطائف، ط1/1408هـ-1988م، ص: 267، والذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، ط1/ 1417 هـ- 1997م، وابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهند، ط2، 1392هـ/ 1972م، 63/6]، والسيوطي: جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان، 280/1.

[3] البحر المحيط، 518/9

[4] الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث-بيروت – لبنان، 1420هـ-2000م، 193/2.

[5] مقدمة البحر المحيط، 11/1.

[6] ابن قاضى شهبة: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (ت851هـ)، طبقات الشافعية، تح: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب-بيروت – لبنان، ط1/1407هـ، 9/ 276.

[7] الذهبي، المعجم المختص بالمحدثين، ص: 179

[8] ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، 58/6

[9] البحر المحيط،15/1.

[10] نفسه، 15/1

[11] البحر المحيط، 15/1

[12] نفسه، 15/1

[13] نفسه، 14/1

[14] استشف اللفظ: أبصر ما وراءه من المعاني والدلالات، ومنه ثوب شفيف، أي يبصر ما وراءه [الفيومي: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت نحو 770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية – بيروت – لبنان، د – ت، مادة: شفف.]

[15] البحر المحيط، 21/1

[16] البحر المحيط، 22/1

[17] نفسه، 22/1.

[18] نفسه، 17/1

[19] نفسه، 14/1

[20] نفسه، 14/1

[21] البحر المحيط، 15/1

[22] نفسه، 15/1

[23] سورة النحل، الآية: 44

[24] البحر المحيط، 15/1

[25] نفسه، 15/1

[26] البحر المحيط، 16/1

[27] نفسه، 19/1

[28] البحر المحيط، 19/1

[29] نفسه، 19/1

[30] نفسه، 19/1

[31] نفسه، 19/ 1

[32] بَزَّ، أي: فاق أهل الدنيا [الفيروزآبادي: مجد الدين، القاموس المحيط، مادة: بز]

[33] أيوب ابن القرية النمري، وهي أمه، واسم أبيه: يزيد بن قيس بن زرارة النمري، الهلالي، أعرابي، أمي، فصيح، مفوه، يضرب ببلاغته المثل. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 346/4]

[34] البحر المحيط، 19/1

[35] كزا: من الكز الذي يدل على قبض وتقبض، جاسيا: فيه شدة وصلابة [ابن فارس، مقاييس اللغة، (مادتا كز وجسأ)، ويقال جسا بلا همز]

[36] البحر المحيط، 19/1

[37] البحر المحيط، 17/1

[38] نفسه، 18/1

[39] نفسه، 18/1

[40] نفسه، 18/1

[41] البحر المحيط، 18/1

[42] نفسه، 17/1

[43] البحر المحيط، 17/1

[44] نفسه، 17/1

[45] نفسه، 17/1

[46] نفسه، 93/1

[47] البحر المحيط، 41/1

[48] سورة البقرة، الآية 224

[49] البحر المحيط، 448/2